التضامن ويقظة الضمير الإنساني

الأمير الحسن بن طلال
رئيس منتدى الفكر العربي

ما نواجهه اليوم عالمياً من آثار إنسانية واجتماعية واقتصادية مترتبة على انتشار وباء كورونا "Covid-19"، هو بحدّ ذاته تحدٍّ لمعرفة مدى تجذُّر مفهوم المواطنة الفاعلة لدى كل واحد منا، ويشكّل اختباراً لقدرتنا على الانتقال من محدودية "الأنا"، إلى رحابة المفهوم الجامع لمدلولات التآلف والتضامن والتعاضد (نحن)؛ وبخاصة من حيث توافر القدرة للإنسان الواعي على التفاعل مع قضايا مجتمعه ووطنه والمجتمع الإنساني ككل، مما يؤكد ضرورة السعي إلى بناء عالم اجتماعي يتميز بالفاعلية وبالانخراط الشخصي في التفاعل مع الآخرين.

وإذا اعتبرنا أننا أمام حرب عالمية جديدة ضد وباء اجتاح 159 بلداً في العالم، فإن الأسئلة التي تتعمق فينا تدور حول ما إذا كان الوباء الفعلي أمامنا أم خلفنا؟ وهل باستطاعتنا في إطار استيعاب البُعد العالمي الأشمل لهذا التحدّي أن نصمد بالجدية اللازمة والصبر المطلوب لنخرج من متوالية الأزمات المماثلة أقوى من ذي قبل؟

إنَّ الإجابة على مثل هذه التساؤلات ينبغي أن تستند إلى حدس البداهة في أنّ المسؤولية الإنسانية والأخلاقية هي معيار العمل، يدا بيد، خلال المرحلة المقبلة، من أجل زيادة الوعي وتعزيز القيم الأساسية التي تشكّل جوهر إنسانيتنا، وأعني بها تحديداً الرحمة والتعاطف والاحترام والتشاركية.

وفوق هذا كلّه لا بد من تعظيم الروح الجماعية بمعنى "weness" أو تأكيد المفهوم الجمعي المرتبط بضمير "نحن"، وتقديم الصالح العام على فردية "الأنا".

وليس من سبيل إلى ذلك إلّا بوقوفنا صفا واحداً في عمل جماعي حقيقي يتجاوز حالة التمنّي إلى مواجهة مباشرة لتداعيات هذا الانتشار الوبائي أو الجائحة العالمية، والعمل بمنهج تغليب العقل والحكمة، وإيثار تقديم العون والمساعدة بكل ما نستطيع، من أجل إعلاء شأن الكرامة الإنسانية، وأن يكون الشعور مع الآخرين والتعاطف مع المرضى والمنكوبين نابعاً من عمقنا الحضاري الإنساني، كما جاء في الحديث الشريف "مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ؛ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى" (أخرجه البخاري ومسلم).

على الإنسانية، بأسرها، أن تتحد وتنسّق الجهود وتشارك المعلومات والمعرفة للخروج من هذه الفاجعة العالمية، التي أصابت الجميع دون تمييز بين الأغنياء والفقراء، والشيوخ والأطفال، وكذلك بين الأعراق والألوان والمعتقدات. فالجميع في موضع الخطر أمام وباء سريع الانتشار. وعلى الرغم من كل التقدّم العلمي والطبي الذي نشهده، فإن الحل الوحيد للخروج من أيّ أزمة يبدأ بالوعي والتضامن وترسيخ مبدأ الأمن الديمقراطي.

هذه الأوقات الاستثنائية تُعدُّ فرصة للتواضع والاعتراف بمحدوديتنا كبشر، وحاجتنا لأن نتشارك معاً في العمل لتحقيق النفع العام ومصلحة المجموع. وفي هذا المجال تبرز أهمية التشبيك والتنسيق بين الجهات المختلفة، واستنفار طاقاتنا في التواصل الفعّال وحُسن التصرف والأداء الأفضل، ضمن الإطار الوطني؛ الحكومي والأهلي والفردي على السواء، لإيجاد ديناميات من التفاعل، وإعادة بناء الثقة بين الجهات المقدمة للخدمات (حكومية كانت أم أهلية) والجمهور.

لقد كنا بحاجة إلى صدمة قوية توقظ ضميرنا الإنساني، وتخرجنا من وهم التسلّط والتفوق، والشعور الخادع بالاستغناء عن الآخرين والابتعاد عن الخُلق الإيماني الإنساني. إنها لحظة تاريخية اجتمعت فيها مخاوف البشرية وآمالهم وشعورهم بوحدة همومهم ومصيرهم المشترك

وفي سياق إدارة الأزمات، لا بد لنا أيضاً من معالجة أزمة الأفكار والفراغ، فهناك من الدواعي والأسباب ما يحتّم ملء هذا الفراغ عبر تعزيز التفاعل بين الجامعات ومراكز الفكر والدراسات والنقابات والهيئات المهنية ومنظمات المجتمع المدني كافة.

كما يقع علينا واجب التعلّم من الآخرين والبناء على الدروس المستفادة من تجاربهم، ونحن نُعيد التفكير فيما ننفق وما نقتني، بحيث نفكر أكثر بالآخر المُقبِل، وندرك مغزى ما تقوم به المؤسسات الدولية من تأكيد الحفاظ على الهوية والالتزام بالعمل المشترك، وهذا لا يعفينا من التساؤل: أيننا من إقامة بنك إقليمي للإعمار بعد الحروب؟ وأين نحن من مشروع مؤسسة عالمية للزكاة والتكافل الإنساني؟ فنحن نتحدث عن الزكاة بهذا المفهوم في إطار الخدمة الإنسانية للجميع. وفي قوله تعالى "يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ"(الانشقاق:6)، نَجد الخالق – عزَّ وجَلَ – يخاطب الإنسان مترفقاً به، عطوفاً عليه، داعياً إياه إلى العمل الجادّ والمسؤول، فالدين في خدمة الإنسانية.

إننا جزء من العالم البشري علينا ما على الآخرين من واجبات، ولنا ما لهم من حقوق، ومن هنا يتحدَّد دور كل جزء في المجموع ومسؤوليته على مبدأ المساواة، وترتسم حلقات الامتداد الحضاري في عملية التواصل والحركة الحيوية الدائمة والمحرِّكة للعلاقة العضوية بين الجزء والكلّ.

لقد أنتجت الهجرات الجماعية عبر القرنين الماضيين أعداداً كبيرة من المهجريين العرب في الأميركيتين، تساوي في حجمها نصف مجموع سكان الوطن العربي، وبالرّغم من أن كل جيل قد يظن أنه أمام حدث غير مسبوق في بعض الحالات، إلّا أن التاريخ المستمرّ الذي لا يعيد نفسه يعلّمنا بأن ذلك ليس صحيحاً. فنحن أبناء التجربة الحضارية الإنسانية في حكم التاريخ ولسنا بمعزل عن شركائنا في كل ما يجمع البشرية من أواصر وصلات. ولا نخطئ هذا المفهوم التواصلي حينما نُعَدّ امتداداً لآسيا كما نحن بمثابة امتداد لأوروبا، وكما أن امتدادنا ليس مقتصراً على الشرق، وإنما يصل إلى الغرب الذي يمكن أن يُعدّ أيضاً من جهة أخرى امتدادا لنا.

غايتنا أن نبحث عن السلام الداخلي في مكنوناتنا، وعن السلام فيما بيننا. فالسلام لا يعني غياب الحرب فقط؛ بل يعني النهضة والتنوير، ولنا في الوحدة الأوروبية القائمة على السلم مقياساً وحُجّة على أهمية المنحى السلميّ.

ويظلّ السؤال المشروع: كيف ننهض من فواجعنا؟ إن ذلك لن يتأتّى لنا إلا من خلال تفعيل رصيد أساسي من الفكر والإرادة، لأن الأفكار أهمّ من المال. فهل نستطيع أن نطبق هذا المفهوم على شبابنا وهم يهاجرون بمئات الآلوف لدول مختلفة؟ كيف نعطي لشبابنا معنى حقيقياً للحياة؟ كيف نواجه التحديات الثلاثة المتمثلة بالكوارث التي اقترفها الإنسان؛ والحروب المستعرة بين الإنسان وأخيه الإنسان؛ والكوارث التي من صنع الطبيعة مثل التصحر والجفاف والتمدين غير المنضبط على حساب الأرض، هذه وحدها كافية لكي نعيد النظر في أولوياتنا.

إذن، علينا إعطاء الفكر محتوى جديداً، نبحث فيه عن أقطاب البوصلة في دعوتنا لبناء محتوى المشاركة العلمية والتطبيقية، سواء في الصحة أو التربية أو البيئة المكانية والإنسانية والجغرافية، وعلى رأس من نعنيهم بذلك الشباب من الوطن والمهجّر، فالدمج بين العلوم الطبيعية والإنسانية هو ما يشكل تقدماً كبيراً في فهمنا لبناء المعرفة المشتركة، وتعزيز البحث العلمي والفكر العلمي الناقد. وفي هذا المجال علينا الاعتراف بأن الضغط الأدبي من الشباب مقبول في سياق التطوير الفكري والقيمي لتطوير التعليم وبرامج الصحة الوقائية قبل العلاجية.

علينا كذلك أن نعمل على أنسنة البيئة المكانية والإنسانية، ونطوّر من مفاعيل الهوية في إطار المقاصد العليا للدين. وهنا نستطيع التحدّث عن دساتير شرف ومواثيق أخلاقية وتضامن أخلاقي في مجالات أوسع من المصالح والضيقة.

لا شك أن الأولويات لا يمكن أن يحددها الوضع الاقتصادي فقط كما حصل في بعض الدول، بل يجب التفكير ملياً والتروّي وإيثار الكرامة الانسانية، فالبعد الأخلاقي للأزمة هو امتحان لضمير الأطباء والمرضى والمواطنين على حد سواء؛ في بناء مجتمعات أكثر مناعة تقاوم الأمراض والفايروسات التي قد تهاجم العالم في المستقبل، والعمل لبلورة رؤية إنسانية واضحة نحو العلم والتكنولوجيا تقتضي تلبية حاجات الفقراء والمهمشين والضعفاء من الخدمات والمنتجات بوصفها أولوية في أعلى قائمة الأولويات.

ولا ننسى هنا أهمية بناء "المناعة النفسية" والارتقاء بمستوى تقديم خدمات الصحة النفسية والدعم الاجتماعي لحماية أنفسنا والآخرين. فالتكامل المتناغم للجسد والعقل والبيئة هو الأساس في بناء مجتمع أكثر أمانا.

وفي سياق تفعيل التواصل الإلكتروني واللقاء الافتراضي إلى حين انتهاء الأزمة، لا بد من العمل عبر وسائل التكنولوجيا المختلفة على بثّ روح الأمل والتذكير بفاعلية الإيمان التي تعظم في نفوسنا مشتركاتنا الإيمانية والإنسانية، بدلاً من نشر الشائعات واللغو والغيبة والشماتة بمعاناة الآخرين وآلامهم واغتيال الشخصية. فالظروف الاستثنائية تبرّر التضييق في حدود الحقوق والحريات الدستورية بالقدر الكافي للتعاطي معها، فمبدأ سيادة القانون والدولة القانونية وإنْ كان يصلح في الظروف العادية، إلا أنه وعند تعرض مكوّنات الدولة للخطر يكون تقديم الصالح العام على حقوق الأفراد مصلحة عامة، بحيث نعود نتفيأ بظلال المشروعية بعد الانتهاء من هذه الأيام الاستثنائية. كما علينا أن نؤمن بقدرة الإنسان على الإبداع كي نجسّد معاً قدرتنا على الصمود وإعادة البناء والتجديد بعيداً عن أيّ اختلافات قد تقسمنا وتخلخل التماسك الاجتماعي.

كلّي أمل بقدرتنا على تجاوز هذه المحنة، وأؤكد أن مستقبلنا لا يعتمد فقط على مجرد اكتشاف الحلول العلمية لمشكلاتنا فقط، بل يعتمد أيضاً على اتفاقنا بأن التطور العلمي يجب أن يوجّه من أجل خير البشرية ورفاهها والذي يجب أن يكون أساس جهود التنمية.

لقد كنا بحاجة إلى صدمة قوية توقظ ضميرنا الإنساني، وتخرجنا من وهم التسلّط والتفوق، والشعور الخادع بالاستغناء عن الآخرين والابتعاد عن الخلق الإيماني الإنساني. إنها لحظة تاريخية اجتمعت فيها مخاوف البشرية وآمالهم وشعورهم بوحدة همومهم ومصيرهم المشترك. فالالتفات إلى التاريخ يكون بالنهضة والتنوير، وليس بإعادة التاريخ إلى زوايا الفناء، كما كان الحال مع بعض الحضارات قبل الميلاد. وأقول إنّ التاريخ هو مُعلّمٌ حكيم للتغيير حين يصلح الإنسان من أمره في تغيير يتماشى مع وضعه وحياته ومستقبل إنسانيته.

الديمقراطية، وجه آخر للغطرسة

علي الصراف
كاتب عراقي

حصد بوريس جونسون في انتخابات ديسمبر الماضي البرلمانية البريطانية، أغلبية ساحقة تكفي لفعل كل شيء وقول أي شيء، بما في ذلك تهديد حياة البشر.

هذا الأمر ليس جديدا على الديمقراطيات الغربية. أدولف هتلر فاز بأغلبية ساحقة من قبل، فقاد بلاده إلى حرب قضت على أكثر من 50 مليون إنسان. توني بلير، قاد سلطة حزب العمال في بريطانيا بأغلبية كبيرة، فقاد بلاده لغزو العراق، ودماره. ومثله فعل جورج بوش، الأب والابن.

النماذج الهتلرية للديمقراطية ليست بعيدة عن ثقافة دونالد ترامب نفسه، الذي بدأ رئاسته بسلسلة من السياسات العنصرية ضد المهاجرين والمسلمين، قالت ما قالته النازية ضد اليهود. الأصل واحد، والأوجه مختلفة. وأصل الأصل في هذا وذاك، هو الاستهانة بحياة البشر وفقا لافتراضات نظرية، أو مفاهيم أيديولوجية، تتحول إلى قناعات راسخة، وسياسات لا تأبه بالتفاصيل.

"دعوني أكون صريحا معكم. سوف نخسر حياة الكثير من أحبائنا في وقت غير وقتهم". هذا ما قاله جونسون لدى تقديمه لسياسة حكومته في مواجهة تفشي فايروس كورونا.

الجرأة في القول "إن هناك أناسا كثيرين سوف يموتون" لم تستند إلى تقدير متأسف حول أعداد الضحايا ممن لن تتوفر المساعدة اللازمة لإنقاذهم، وإنما استندت إلى نظرية، أقنعه بها واحد من علماء النازية المعاصرين. إنه السير باتريك فالانس كبير المستشارين العلميين للحكومة.

تقول النظرية، التي تدعى "مناعة القطيع"، إنه عندما يصاب عدد كبير من الأشخاص الأصحاء، فإنهم سوف يبنون لأنفسهم مناعة ضد المرض، وهو ما يمكنه أن يشكل جدار حماية للأشخاص الأكثر ضعفا. وهو ما يعني قبول تفشي المرض، بدلا من اتخاذ إجراءات للحد منه. فلكي تبني للقطيع (الشعب البريطاني) مناعة ذاتية، فإن المرض يجب أن يتفشى، وليقتل من يقتل، ولكن النتيجة سوف توفر للقطيع القدرة على مقاومة المرض في مراحله اللاحقة.

229 عالما يعملون في مختلف الجامعات البريطانية قالوا إن هذه النظرية ستضع خدمات الصحة العامة تحت ضغط إضافي، وتخاطر بحياة عدد كبير من البشر قد يصل إلى عشرات الآلاف. وقالت مجموعة العلماء، في رسالة إلى الحكومة، إن هذه الاستراتيجية تعني أنه في المملكة المتحدة وحدها سيحتاج 36 مليون شخص على الأقل إلى الإصابة والتعافي.

ويليام فون شايك، بروفيسور الأمراض المعدية في جامعة برمنغهام، وأحد الذين وقعوا الرسالة، قال "يكاد يكون من المستحيل التكهن بما سيعنيه ذلك من حيث التكاليف البشرية. ولكن حسابا متحفظا قد يعني عشرات الآلاف من الضحايا، وربما مئات الآلاف من الوفيات".

المتحدث باسم وزارة الصحة قال في الرد على احتجاجات العلماء، إن تعليقات السير باتريك أسيء تفسيرها. وأضاف "إن مناعة القطيع ليست جزءا من خطة عمل الوزارة، ولكنها نتاج ثانوي طبيعي للوباء".

استراتيجية "مناعة القطيع" أقنعت الحكومة البريطانية، على أي حال، بعدم تعطيل المدارس، حتى إن إدارات المدارس أرسلت رسائل تهدد أهالي الأطفال باقتيادهم إلى المحاكم إذا ما أجبروا أطفالهم على عدم الذهاب إلى المدارس.

وبالنظر إلى أن الأطفال هم أكبر ناقل للمرض وأقل من يصاب به بسبب طبيعة نظام المناعة الذاتية لديهم، فإن تلك الاستراتيجية تكاد تعني القول: دع الأطفال ينقلون المرض، لكي يبني المجتمع مناعة القطيع. الملكة إليزابيث الثانية، ليست من القطيع، الذي تشمله نظرية فالانس، ولقد أثرت مغادرة قصر باكنغهام تحاشيا للإصابة، وتحاشيا للتمتع بمناعة يوفرها القطيع.

يبلغ عدد الذين يعيشون في بريطانيا 66 مليونا. ووفقا لكبير الأطباء في إنجلترا، البروفيسور كريس ويتي، فإن أسوأ سيناريو هو أن حوالي 80 في المئة من سكان المملكة المتحدة يصابون بالعدوى. وبالنظر إلى أن معدل الوفيات بالمرض يتراوح بين 1 و3.6 في المئة، فإن الحد الأدنى المحتمل للوفيات، في حال السماح للمرض بالتفشي، وفقا لنظرية فالانس، سوف يبلغ 660 ألف ضحية. وهذا رقم أكبر من عدد الذين تم حرقهم في أفران معسكر أوشفيتز من اليهود.

لا يوجد علاج للمرض. هذا أمر واضح. وأنظمة الخدمات الصحية لا تملك القدرة على توفير أجهزة التنفس الاصطناعي للمصابين، بوصفها الوسيلة الوحيدة لمساعدتهم، لعلهم يتغلبون على المرض إن لم يتغلب عليهم. إيطاليا وجدت نفسها بلا أجهزة كافية. فقررت أن تترك كبار السن يموتون لعلها توفرها لمن هم أصغر سنا. وما هذه إلا مجزرة. المجتمعات لم تبن نفسها كمجتمعات متحضرة لتتصرف على هذا النحو.

الحل الوحيد هو: العزل التام والشامل، ريثما يتم العثور على لقاح. دون ذلك، فإن الضحايا سوف يسقطون في الشوارع كالذباب، أو يموتون بصمت في منازلهم، كما تقترح إجراءات خدمات الصحة العامة في بريطانيا التي تطلب من المصابين عزل أنفسهم، وعدم الاتصال بخدمات الإسعاف إلا بعد أسبوع من ظهور أعراض المرض.

يعرف فالانس ذلك. وهو يبرره بالقول إن الغاية منه هي إبطاء تفشي المرض إلى الحد الذي يسمح لخدمات الصحة الوطنية بمواكبة الاحتياجات. الصين حاصرت مركز تفشي المرض على نحو لم تفعله إيطاليا إلا متأخرا. وإقليم هوبي الذي يقارب عدد سكانه عدد الذين يعيشون في بريطانيا، أصيب منهم نحو 80 ألفا، وقضى نحو 7 آلاف شخص. إنما بفضل إجراءات الحصار المشددة. ولولاها لأصيب أكثر من نصف مليون وتوفي أضعاف ذلك الرقم.

اليوم تبدو الصين في وضع آمن نسبيا. لأنها اتخذت إجراءات ضحّت بالمال والميزات الاقتصادية من أجل الحفاظ على حياة البشر. كانت تلك هي الغاية الوحيدة. لم تكن هناك نظريات. ولا حسابات باردة لعلماء مرضى في ضمائرهم. ولا كان هناك سياسيون يعتمدون على أغلبيتهم الساحقة لكي تبرر لهم القول "سوف يموت الكثير من أحبائكم في غير وقتهم". لقد ضحى هتلر بملايين البشر انطلاقا من نظرية حمّلت اليهود، كل اليهود، مسؤولية هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى، قبل أن تتطور إلى "تفوق العرق الآري". يكفي عالم ينظر إلى مواطنيه على أنهم قطيع، ويجري حسابات تتوافق مع سياسيين مطمئنين إلى أغلبيتهم الساحقة، ويتصرفون باستهتار واستعلاء، لكي يحول نظريته إلى مشروع إبادة جماعية، تستند إلى "تفوق أنظمة المناعة الذاتية".

النظرية هي ذاتها النظرية. وهي هنا تقول: دعوا المرض يتفشى، ثم موتوا في منازلكم. تلك هي المحرقة التي يقترحها أرعن مثل بوريس جونسون. وما من أحد قادر على أن يوقفه. فأغلبيته ساحقة.

العرب
أول صحيفة عربية صدرت في لندن
1977 أسسها
أحمد الصالحين الهوني

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير المسؤول
د. هيثم الزبيدي

رئيس التحرير والمدير العام
محمد أحمد الهوني

مدراء التحرير
مختار الدبابي
كرم نعمة
حذام خريف
منى المحروقي

مدير النشر
علي قاسم

المدير الفني
سعيدة اليعقوبي

تصدر عن
Al-Arab Publishing House
المكتب الرئيسي (لندن)
The Quadrant
177 – 179 Hammersmith Road
London, W6 8BS, UK
Tel: (+44) 20 7602 3999
Fax: (+44) 20 7602 8778

للإعلان
Advertising Department
Tel: +44 20 8742 9262
ads@alarab.co.uk

www.alarab.co.uk
editor@alarab.co.uk